الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر

الفصل الخامس

الآداب العربيّة من السنة ١٨٥٠ الى السنة ١٨٧٠

بحث تاريخي وانتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع)

كانت حالة الاداب العربيّة في هذا الطور الثالث كحالة الحدَث الذي يدخل في شبابهِ ويشعر بقوّتهِ فيحوّل افكارهُ الى عالم العلم ومنتدى الآداب وهو الى ذلك الحدّ مشغول البال بشواغل الاحداث لا يجد كبير نفع بامور العقل والابحاث العلميّة والاتساع في آداب اللغة واساليب الكتابة

أمّا ما امتاز بهِ هذا الطور فانشاء الجرائد في الشرق. والظاهر انّ اوّل جريدة ظهرت في الممالك المحروسة انّما كانت في ازمير انشأها المسيو بلاك (Blacque) سنة ١٨٢٥ ودعاها بريد ازمير (Le Courrier de Smyrne) ثمّ استدعاهُ جلالة السلطان محمود الثاني الى دار السعادة فانشأ فيها جريدة تركيّة تُدعى « تقويمي وقائع » لكنهُ مات بعد قليل وانشأ السائح الانكليزي شرشل (Churchill) جريدة اخرى سمّاها « جريدتي حوادث ». امّا الصحافة العربية فنشأت اوّلًا في مصر بطبع « الوقائع المصريّة » التي صدرت سنة ١٨٢٨ على عهد محمّد علي باشا فظهرت سنين عديدة . وكان ظهورها ثلاث مرّات في الاسبوع . ثمّ توفّرت الجرائد في الممالك المحروسة حتى ان سالنامة سنة ١٢٦٨ (١٨٥١—١٨٥٢) المطبوعة في دار السلام عدّت منها ١١ جريدة في استانة العلية و ٥ في ازمير و٤ في مصر (Cfr. Journ. As., 1852b, p. 248) في التركية والفرنسويّة والارمنيّة واليونانيّة والعبرانية والعربية. وجاء في مجلة الهلال (٥ : ٣٠٠) انّ رزق الله حسّون الحلبي انشأ في دار السعادة جريدة عربيّة وسمّاها « مرآة الاحوال » والمعلوم انّ هذه الجريدة كانت تُطبع في لندن. وخلفتها سنة ١٨٥٧ جريدة السلطنة لمحرّرها اسكندر افندي شلهوب. امّا سوريّة فكانت اوّل جرائدها « حديقة الاخبار » انشأها فقيد الادب المتوفى في العام الماضي خليل افندي الخوري ظهر اوّل

اعدادها في غرّة كانون الثاني من السنة ١٨٥٨ ولم تزل في الوجود حتّى وفاة منشئها فانطفأ سراج حياتها معهُ. وفي سنة انشاء حديقة الاخبار ظهرت في مرسيلية جريدة « عطارد » كان يديرها المستشرق كرلتي (Carletti)

وأُنشئت في اثر تلك النشرات عدّة جرائد اخصُّها الرائد التونسي. وهي جريدة تونس الرسميّة سنة ١٨٦٠. وفيها في تموز انشأ الشيخ احمد فارس الشدياق في الاستانة جريدة الجوائب فبقيت فيها الى السنة ١٨٨٤. وفي ذلك الوقت ايضاً ظهرت في باريس جريدة البرجيس كان يحرّرها سليمان الحرازيّ التونسي. وعقبها في دمشق جريدة سوريّة الرسميّة ظهرت سنة ١٨٦٥. ثمّ وليها في مصر جريدة وادي النيل سنة ١٨٦٧

وفي تلك الاثناء شرع المرسلون الاميركيّون في بيروت بتحرير جريدة دينيّة دعوها « النشرة الشهريّة » ثمّ ابدلوها في غرّة السنة ١٨٧٠ بالنشرة الاسبوعيّة. فكان ذلك داعياً لنشر جريدة كاثوليكيّة انشأها الآباء اليسوعيّون في السنة نفسها ودعوها « المجمع الفاتيكاني » ثم عقبها « البشير » في اوائل من تلك السنة وكان اوّلاً على قطع المجلّات ثم طُبع على قطع الجرائد ولم يزل في اتساع وتحسين حتى صار كما هو اليوم. ورأت السنة ١٨٧٠ انشاء جرائد ومجلّات اخرى كالزهرة وكانت جريدة اخباريّة عُني بنشرها الاديب يوسف الشلفون والنحلة للقس لويس صابونجي السريانيّ وكانت ادبيّة وعلميّة والنجاح وكانت اخباريّة سياسيّة انشأها القس المذكور مع يوسف الشلفون ثم. صارت ملكاً للمرحوم رزق الله خضرا بشراكة الطبيب الذكر المطران يوسف الدبس. وفي تلك السنة ذاتها انشأ المعلم بطرس البستاني وابنهُ سليم مجلة الجنان وجريدة الجنّة فصار لهما رواج

وممّا امتاز به هذا الطور الثالث ايضاً الجمعيات العلمية في الشرق فعُقدت جمعية آسويّة (انجمن دانش) في دار السلام نُشرت قوانينها واسماء اعضائها في المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG. VI, 273-285) وكذلك اخذ العلماء المصريّون ينشئون قواهم لنشر الاداب فبهمّتهم طُبعت في بولاق تآليف معتبرة كالاغاني لابي الفرج الاصفهانيّ وامثال الميدانيّ واحياء علوم الدين للغزّاليّ والخطط للمقريزيّ. ولم تخلُ سوريّة من جمعيّات علمية نفعت الآداب بمنشوراتها الحسنة

أمّا المدارس فانّها زادت في هذا الطور ترقيّاً لاسيما مدارس المرسلين الكاثوليك من ذكور واناث ومدارس الاميركان لاسيّما كليّتهم التي علّموا فيها اللغات والعلوم وكانت

الدروس تُلقى فيها اوّلًا بالعربيّة وطبعوا عدّة كتب مدرسيّة في ضروب العلوم كالطبيعيّات والرياضيّات والهيئة والكيميا والجغرافيا ثمّ اتخذوا للتدريس اللغة الانكليزيّة لتوفّر اسبابها لديهم

وقد أُنشئت في هذا الطور مدارس جديدة اخصُّها المكتب العسكري الذي ترقّى بهمّة اصحابه ونال الشهرة في انحاء سوريّة . والمدرسة الوطنيّة التي فتحها بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ في بيروت فجارت في تعاليمها بقيّة مدارس المدينة بمساعي منشئها وولده سليم . وفي السنة ١٨٦٥ انشأ الروم الارثدكس مدرسة الثلاثة الاقمار على طرز المدرسة الوطنيّة . وفي اواخر تلك السنة وضع الطيب الذكر غريغوريوس يوسف بطريرك الروم الكاثوليك اساسات المدرسة البطريركيّة فذاعت شهرتها واقبل اليها الطلبة من الشام ومصر وقبرس وتخرّج فيها كثيرون من الادباء فنبغوا في المعارف والآداب العربيّة . ولم يلبث السيّد البطريرك ان فتح ايضاً في عين تراز مدرسة اكليركيّة لتهذيب طلبة الكهنوت . ومن المدارس المارونيّة المنشأة في ذلك الوقت مدرستان في عرمون انشأ الواحدة همّام مراد سنة ١٨٦٥ وعُرفت بمدرسة مار نيقولا العريمة والاخرى مدرسة الحبة جدّدها الخوري ميخائيل سباط سنة ١٨٦٧

اما المطابع فانّها في مدّة العشرين سنةً اصدرت عدداً لا يُحصى من المطبوعات في كل الفنون سواء كان في سوريّة او في مصر والهند . وقد ذكرنا تاريخ معظم هذه المطابع في الشرق وممّا استجدّ من المطابع في هذا الزمان في بيروت المطبعة السوريّة التي انشأها المرحوم خليل افندي الخوري سنة ١٨٥٧ وقد وصفنا تاريخها وقائمة مطبوعاتها في المشرق (٣ : ٩٩٨) وفي السنة التالية احدث الدكتور ابراهيم النجار مطبعةً عُرفت بعد ذلك بالمطبعة الشرقيّة (المشرق ٣ : ١٠٣٢) . وبعدها بثلاث سنوات نال يوسف الشلفون الرخصة بفتح مطبعة دعاها المطبعة العمومية (المشرق ٣ : ٩٩٩) فنشر فيها عدّة كتب ونشرات وجرائد . ثمّ ظهرت المطبعة الخاصيّة سنة ١٨٦٥ فخدمت الآداب العربيّة نحو ثماني سنوات (المشرق ٣ : ١٠٣٢) وفي السنة نفسها كانت المطبعة السريانيّة التي نُقلت ادواتها بعد قليل الى الشرفة (المشرق ٤ : ٨٩) وكذلك ظهرت وتقهقرت المطبعة الوطنية لجرجس شاهين (المشرق ٤ : ٨٦) . ثمّ انشأ جناب الاديب الفاضل خليل افندي سركيس مطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ شركةً مع المعلم بطرس البستاني الى

سنة ١٨٧٤ حيث انشاء المطبعة الادبية. وكان آخر ما انشئ من المطابع في هذا الزمان سنة ١٨٦٩ المطبعة اللبنانية لحنا جرجس الفرزوزي (المشرق ٤: ٨٦ — ٨٧) ومطبعة الجمعية الارثذكسية لجرجس يزبك التي لم تطل مدتها ولم تتجاوز مطبوعاتها ثلاثة او اربعة كتب دينيّة

وفي هذا الطور نفسه انتشر فنّ الطباعة العربيّة في لبنان وكان قبلها منحصراً في مطبعة مار يوحنّا الصايغ في الشوير امّا مطبعة قزحيا فكانت حروفها سريانيّة واوّل مطابع لبنان في هذا العهد مطبعة بيت الدين كان الساعي بادارتها حنّا بك لسمد المصبّ باشر اوّلاً سنة ١٨٥٣ ببعض المطبوعات الحجريّة ثمّ طبع على الحروف سنة ١٨٦٢. ثم ندب المرحوم داود باشا يوسف الشلفون لانشاء مطبعة لتصرفيّة لبنان فأنشئت المطبعة اللبنانيّة سنة ١٨٦٣ تولى تدبيرها ملحم النجّار ثمّ نقلها الى دير القمر سنة ١٨٦٩. وفي المطبعة اللبنانيّة طبعت جريدة لبنان الرسميّة كان يحرّرها حبيب افندي خالد (المشرق ٤: ٤٧٣)

ثمّ ظهرت مطبعة دير طاميش سنة ١٨٥٨ فوق وادي نهر الكلب (المشرق ٤: ٤٧٣) فاشتغلت عشر سنوات. وأنشأ المرحوم رومانوس يمين سنة ١٨٥٩ مطبعة اهدن فشاركهُ في العمل الخوري يوسف الدبس (المشرق ٤: ٤٧٣)

امّا الجهات فظهرت فيها ايضاً مطابع اخرى فانشأ المرحوم حنّا الدوماني سنة ١٨٥٥ في دمشق مطبعة انتقلت بعد ذلك بالشراء الى حنّا الحدّاد ثمّ الى محمّد افندي الحلبي. ثمّ جليت ولاية سوريّة الجليلة سنة ١٨٦٤ مطبعةً نشرت فيها جريدتها الرسميّة «سوريّة» مع عدّة مطبوعات اخرى (المشرق ٤: ٨٧٩) — وانشئت في الموصل سنة ١٨٥٦ مطبعة جليلة بادارة حضرة الآباء الدومنيكان نأدت للدين والعلم والآداب خدماً متعدّدة ولم تزل حتى اليوم جارية على خطّتها (المشرق ٥: ٤٢٢). وفيها انشئت ايضاً المطبعة الكلدانيّة بهمّة احد ابنائها الشمّاس رافائيل مازجيّ سنة ١٨٦٣ (المشرق ٥: ٨٤٠) — وظهرت في كربلاء مطبعة حجريّة سنة ١٨٥٦ طُبعت فيها مقامات الشيخ محمود الالوسي (المشرق ٥: ٨٤٣) ثمّ استحضر الميرزا عبّاس مطبعةً اخرى حجريّة في بغداد فعُرفت بمطبعة كامل التبريزي ونشت العلوم بعض المنشورات نحو خمس سنوات (المشرق ٥: ٨٤٣ — ٨٤٤). ثمّ بطلت تلك المطبعة بظهور مطبعة ولاية بغداد سنة

١٨٦٩ فأصدرت جريدة الولاية ومطبوعات غيرها (المشرق ٥: ٨٤٣) — وكذلك حلب فانَّ فنَّ الطباعة تجدَّد فيها في اواسط القرن التاسع عشر. وكان اوَّلا احد الفرنج المدعو بقنطيْ السرديني نشر بعض المطبوعات الحجريَّة في الشهباء. منها ديوان الفارض سنة ١٢٥٧ (١٨٤١) وكتاب المزامير. ثمَّ اهتمَّ الطيّب الاثر المطران يوسف مطر بانشاء مطبعة على الحروف فطُبع فيها منذ السنة ١٨٥٧ الى يومنا نحو ٥٠ كتاباً بين كبير وصغير (المشرق ٣: ٣٥٧ — ٣٥٨)

أمَّا اوربَّة فكانت فيها الدروس الشرقيَّة لاسيما اللغات الساميَّة على خطَّتها الشريفة. وكان عدد وافر من تلامذة دي ساسي قد انتشروا في اقطار شتى فبثوا الهمم لدرس آثار الشرق ولغاته واحياء دفائنه فعُقدت جمعيَّات جديدة وأُنشئت المدارس وتوفَّرت المطبوعات والخزائن الكتبيَّة. وكانت فرنسة في مقدَّمة الدول لما كان بينها واقطار الشرق من العلائق والمعاملات وخصوصاً بلاد الجزائر

وممَّا ساعد على توفير اسباب الترقي للآداب العربيَّة في هذا الطور الثالث بين نصارى الشرق خاصَّة بطاركة اجلَّاء محبُّون العلوم وساعون في تنشيطها بين مرءوسيهم. فكان يسوس طائفة الروم الكاثوليك الملكيين السيِّد المفضال مكسيموس مظلوم الذي مع وفرة اشغاله في تدبير بنيه ابقى لهم من تآليفه او ترجمته نيِّفاً وخمسين كتاباً طُبع نحو نصفها في بيروت ورومية والاستانة ومصر وهي في كل ضروب العلوم من لاهوت نظري وادبي وجدل واخبار قديسين وعبادة وطقوس وتاريخ وجغرافية وصرف ونحو وطبيعيَّات. فكان مثال جدٍّ ونشاط لم تخمد همتهُ الَّا مع خمود انفاسه في ١٠ آب سنة ١٨٥٥

وقام على الطائفة المارونيَّة غبطة البطريرك بولس مسعد سنة ١٨٥٤ وكان من البارعين في معرفة الانساب والتاريخ الشرقيّ والحقّ القانوني خلَّف من كلّ هذه العلوم آثاراً حسنة

وفي هذه الغضون كان على السريان الكاثوليك البطريرك اغناطيوس بطرس جرجه وقد ذكرنا في المشرق (٩: ٦٩٧) ما لهُ من المآثر العلميَّة. ولمَّا دعاهُ الله الى دار الخلود في سنة ١٨٥١ خلفهُ ذلك الرجل المفضال الكثير المبرَّات اغناطيوس انطون السمحيري (١٨٥٣ — ١٨٦٤) الذي عُني بتهذيب اكليروس طائفته في مدرسة الشرفة وفي

مدرسة غزير ومدرسة البروباغندا في رومية العظمى فخرج من هذه المدرسة رجال افاضل سنذكرهم في تاريخ وفاتهم

أما الارمن الكاثوليك فكان يدبرهم البطريرك غريغوريوس بطرس الثامن منذ السنة ١٨٤٣ فما كان لينسى تعزيز الاداب في طائفته فاهتمّ في انماء مدرسة بزمّار وتنظيم كهنتها على قوانين خصوصيّة كما أنّهُ ارسل الى غزير بعض بني جنسهِ فانجزوا فيها دروسهم ثمّ اشتهروا في خدمة النفوس ولهم تآليف دينيّة. ثمّ قام بتدبير الطائفة الارمنية السيّد انطون حسّون سنة ١٨٦٦ وكان من رجال الفضل والعلم فجرى على مثال سلفهِ في نشر الآداب بين أبناء امّتهِ

وكذلك الكلدان فانّ بطريركهم يوسف اودو (١٨٤٨ — ١٨٧٨) سعى في انماء الآداب في ملّتهِ. وهو الذي انشأ لابناء طائفتهِ مدرسة اكليركيّة في الموصل وارسل احداثاً منهم الى مدارس اخرى فنجحوا

وقد عُرفت الرسالة الاميركيّة في هذا العهد بنشاط عظيم اشتهر بينها الدكتور عالي سميث والدكتور طمسن والدكتور فان ديك فانكبّوا على درس اللغة العربية حتّى اتقنوها. وكان من اثمار اجتهادهم ترجمة الكتاب المقدّس باشر فيها سنة ١٨٤٩ الدكتور سميث بمعاونة المعلم بطرس البستاني فعرّب قسماً من كتب موسى ثمّ توفي سنة ١٨٥٧ فقام بتعريبها من بعدهِ الدكتور فان ديك ولم يزل يفرغ في انجاز العمل كتابة جهده حتى انتهى منهُ سنة ١٨٦٤ بمساعدة الشيخ ناصيف اليازجي. ثم طُبع الكتاب سنة ١٨٦٧. ولم تُثبّت فيهِ الاسفار المعروفة بالقانونيّة الثانويّة. وصار لهذه الترجمة رواج كبير حتى اتت من بعدها ترجمة الاباء اليسوعيين بمساعدة المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجيّ فكانت اضبط نقلاً واشمل موضوعاً وابلغ لساناً واجود طبعاً

(لهُ بقيّة)